

المكانة الادبية

لمدينة الاسكندرية في عهد البطلمة

في شهر ديسمبر من عام ٣٢٢ ق. م دخل مصر الاسكندر الأكبر
ليطرد الفرس ويضم إلى ملكه أغنى وأخصب قطر في العالم القديم ...
وإذ أن تم له النصر السريع على نفرس توجه إلى الصحراء الغربية
ليزور الإله (آمون) - وكان يمثل أكبر إله عند اليونان - وذلك هو
ما كان مشهوراً عندهم باسم زوس Zeus كما كان يعرف عند الرومان باسم
« جوبيتر Jupiter » .

ولعل الاسكندر الأكبر كان يرى من وراء ذلك إلى غرض سياسي بعيد
إذ أنه قبل تلك الزيارة قدّم إلى آلهة المصريين الضحايا ، وأظهر لقسمهم
إجلالا واحتراماً كبيرين ، وكان ذلك على العكس مما عرف عن الفرس من
تخريبهم للعباد المصرية واسمائهم بديانة المصريين وآلهتهم ...

بروي لنا أحد مؤرخي الرومان ، وهو المسمى (Quintus Curtius) ، أن
الاسكندر أثناء عودته من معبد الإله (آمون) عرج على مكان مدينة
الاسكندرية وأعجب بجمال الموقع إعجاباً شديداً ، ومنذ ذلك الحين ساورته
الرغبة في بناء مدينة تحمل اسمه في هذا المكان . ولم يمكن ذلك في تلك
المساحة من الأرض إلا قرية ساحلية صغيرة ، يسميها القراعنة (راكونداه)
ويسميها اليونان (راقوتيس Rhacotis) ، وكان يمكن هذه القرية بعض الرعاة
وصائدي الأسماك ، ويذكر لنا هذا المؤرخ نفسه أن الاسكندر وجه
نظره أولاً إلى بناء تلك المدينة التي كان يحلم بها في الجزيرة الصغيرة المواجهة
لذلك المكان والتي كانت تعرف باسم (فاروس Pharos) ولكنه لم يلبث أن
عدل عن ذلك الرأي ، إذ وجد أن بناء مدينة في هذه الجزيرة الصغيرة

لا يمكن أن يحقق أغراضه التي يهدف إليها من عظمة ومجد مرجوبين لذلك المدينة المنتظرة ، وعلى هذا فقد وجه عنايته إلى الجزء من الأرض المحصور بين البحر وبين بحيرة مريوط . ثم إنه في عهد البطالمة وصلت جزيرة (فاووس) بالشاطئ ، وذلك بواسطة اللسان من الأرض الذي يفصل الآن الميناء الغربي من الميناء الشرقي ...

في عام ٣٣١ ق.م. عهد الاسكندر إلى أكبر مهندسيه (دينوقراطيس Dinoocrates) مهمة تنفيذ مشروع بناء المدينة . ولقد كان لطبيعة السكان من الناحية الجغرافية أثر في تخطيطها فجاءت في أغلب مؤسساتها وفي تقسيمها على شكل مثلثات . وهما حتى اليوم لا يزال نرى أثر ذلك في كثير من شوارعها وبيوتها ، وهناك أسطورة يتناقلها مؤرخوا الرومان قد صاحبت تنفيذ مشروع بناء المدينة . فهم يروون أن (دينوقراطيس) خطط المدينة أولاً بواسطة دقيق الشعير ، إما لأن ذلك من عادة اليونان في تخطيط مدنها وإما لأن الجير أعز المهندس إذ ذاك ، فجاءت جماعات الطير وأكلت هذا الدقيق ، وقد اختلف الناس حينئذ في تفسير هذه الظاهرة وتباينت فيها آراء المنجمين ففسرها بعضهم تفسيراً يدعو إلى التناؤم وكساد العمل يقف لولا أن جاء أحد القساوسة المصريين ورأى في تلك الظاهرة فألاً حسناً إذ قال أن هذه المدينة سيتم بناؤها ، وسيرفع شأنها ، وستكون مصدر خير ونعمة لكثير من الناس . ونحن لا نعتنينا بهذه الأسطورة ولا قيمتها التاريخية بقدر ما يعتنينا درس عقلية القدماء وطريقتهم في فهم بعض الظواهر الطبيعية ...

لقد تم بناء الاسكندرية وتركزت فيها بسرعة حركة ثقافية من علم وأدب وفن ، ثم أنها قد بلغت أوج عظمتها في فترة يسيرة من الزمن ، ولو كان صاحب المشروع حياً إذ ذاك لوجد أن هذه المدينة قد تجاوزت بكثير ما كان يساوره بالذهبة لها من أحلام . ولقد اتجهت عناية القائمين بالأمر أولاً إلى الناحية الثقافية ، ففي نفس الوقت الذي تأسست فيه مدينة الاسكندرية تأسس فيها معهد للعلم فأنترجه بمدرسة الاسكندرية إن أحببنا

أو بجامعة الاسكندرية إن أردنا ، بجانب هذه الجامعة أنشئت دار للكتب
ومساكن للطلبة والأساتذة ، ومرصد للملاحظة النجوم والكواكب السماوية ،
ومعامل للعلوم التجريبية .

ولم يجد ملوك البطلمة الأوائل صعوبة في استدعاء العلماء من مختلف البلاد
وفي مختلف الفنون كي يصوروا جامعة الاسكندرية وبفشلوا لواء معارفهم على
مدن العالم المتحضر إذ ذاك . وتلك ظاهرة امتاز بها الفاتحون من اليونان
على الرومانيين الفاتحين فيما بعد ، فبينما يجد هؤلاء يحاولون جهدهم تركيز
سلطانهم السياسي والادبي في روم وحدها فيجلبون إليها العلماء من سائر
الانظار ، والآثار من سائر الفنون . إذ نرى أرائك يهتمون بإنشاء المدن
والمؤسسات العلمية والفنية في سائر البلاد التي يفتحونها ومن هنا تتحقق
العبارة المشهورة الى قالها أحد النقاد الفرنسيين (لقد غزا اليونان الدنيا
وأعينهم في السماء ، أما الرومان فقد غزوا الدنيا وأعينهم في الأرض) .
وهناك عوامل عدة قد ساعدت جامعة الاسكندرية على تحقيق أغراضها
في ظرف وجيز من الزمن .

فمن هذه العوامل صلاحية البيئة من الناحية العلمية وما كانت تتماز به من
حرية واستقلال واستقرار وهذا لا نجد بدأ من الإشارة إلى الأثر العميق الذي
تأثرت به جامعة الاسكندرية من جامعات مصر الفرعونية ، وخصوصاً جامعة
هيلوبوليس وجامعة ممفيس : الأولى بعلومها التجريبية كالحساب والهندسة والطب
والفلك ، والثانية بعلومها النظرية كالفلسفة والدين . وقد انتقل هذا الأثر
إلى جامعة الاسكندرية إما عن طريق علماء اليونان أنفسهم الذين جلموا من
قبل بدرسون العلم في هاتين الجامعتين ، وأما عن طريق قساوسة الفراعنة
الذين كانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر بأساتذة العلم في جامعة الاسكندرية
أبام عهدها الأول .

ومن هذه العوامل أيضاً ما عرف عن ملوك البطلمة من كرم وسخاء
وخصوصاً بطليموس الاول والثاني والثالث إذ كانت الارزاق تجري عن سعة

على الطلاب والأساتذة ، وكانت الآلاف المؤلفة تنفق على شراء الكتب وآلات الرصد وعمل التجارب . وان من يدرس بدقة تاريخ هذه الملوك ويدرك مبلغ ما كانوا يتفوقونه من مال على الجامعة ولوازمها ومبلغ ما كانوا يقومون به من تشجيع أدبي ، ليفهم في غير عناء إلى أى حد كان هؤلاء الملوك يمدفون إلى أن تسرد مدينة الاسكندرية جميع مدن العالم المتحضر إذ ذاك . ولقد وجدت بينهم وبين غيرهم من الملوك المعاصرين شبه منافسة على تلك السيادة الأدبية . وقد أعانهم على ذلك بلا شك ما وجدوه في مصر من كنوز عليية نفيسة وكنوز مالية خصبة .

وهناك عامل آخر خارجي ولكنه لا يقل أهمية عن العاملين الأولين ، ذلك هو الضعف المسيطر على مدن اليونان الجامعية في ذلك الوقت سواء أكان ذلك في بلاد اليونان أنفسهم مثل مدينة أثينا أم في مستعمراتهم المنتشرة في حوض البحر الأبيض المتوسط مثل مدينة (سيراكوزا Syracuse) في جزيرة صقلية ومدينة «قورين» Cyrene في شمال أفريقيا، إذ كانت هذه المدن في شبه الانحلال السياسي وليس من شك في أن الضعف السياسي يصحبه غالباً ضعف أدبي

كان الانحلال السياسي إذن في بلاد اليونان وفي مستعمراتهم عاملاً قوياً من عوامل الرقي الأدبي لمدينة الاسكندرية . وها هي بعض الأمثلة لتبين إلى أى حد قد استمدت مدينة الاسكندرية من هذا الانحلال الخارجي : المثال الأول ديمتريوس الفاليري Demetrius Phaleri ، وهو من رجاء السياسة والأدب في أثينا ، كان هذا السياسي خطيباً من أفدر الخطباء ومؤرخاً من أخصبر المؤرخين ، ولكن جرائم السياسة قد لحقته فتأرضه الآثينيون ، واضطهدوه فلم يجد بداً من الفرار ففتحت له مدينة الاسكندرية أبوابها ، وقدم اليه بطليموس الأول معوته الأدبية والمادية فأقام في كنفه حتى مات في عام ٢٨٣ ق . م أي قبل موت الملك بمام واحد .

ومن هذه الأمثلة أيضاً كليومين الثالث Cleomenes III ، وكان ملكاً لأسبارطه . ولم تسكن شهرته في الأدب أقل من شهرته في السياسة ولكنه دفع بدوره أيضاً ضحية من ضحايا السياسة وعدم استقرارها في أسبارطه إذ أنه حين لم يتمكن

من مقاومة الثائرين عليه ، فر بدوره إلى الاسكندرية ومكث بها حتى نهايته المؤلمة
في عام ٢٢٢ ق م .

وكذلك نجد ، ثيوكريتس Theocritus ، وهو من اكبر شعراء اليونان في
العالم القديم ، نشأ في مدينة (سيراكوز) في أواخر القرن الرابع قبل
الميلاد . وكانت هذه المدينة مستعمرة يونانية مزدهرة في جزيرة صقلية .
ويعتبر هذا الشاعر بحق المبتكر الأول لنوع جديد من الشعر عرف بشعر
الرعاة . وكان تأثير هذا النوع من الشعر بعيد المدى عند شعراء الرومان
وخصوصاً [فيرجيل Virgilius] أكر شاعر في روما . انتقل ، تيوكريت ، إلى
جزيرة [كوس Kos] وهي من جزر بحر إيجه ؛ ثم منها إلى جزيرة سيسيل
يطالب معونة الملك (هيرين Hiéron) ملك سيراكوز Syracuse ، ولكن مدينة
الاسكندرية كانت أوسع من غيرها رحاباً لهُؤلاء الأئمة المضطهدين ، وملوكها
أكثر عوناً ومدداً من غيرهم من الملوك ، فجاء ، تيوكريتس ، إلى الاسكندرية
واستقر بها بعد أن حجب له فيها المقام .

ومن هذه الأمثلة أيضاً (كالليماخوس Callimachos) وهو من الأدباء البارزين
والمشكرين في العالم القديم ، نشأ في (قورين) وكانت مستعمرة يونانية
شمال أفريقيا في غرب مصر ، ثم انتقل إلى أثينا وأقام فيها طويلاً ، وقد
مرت عليه أعوام من الضنك والبؤس لم تنته إلا بإيواء ملك الاسكندرية
إياه ، فأدخله مكتبة الجامعة كعشرف على جزء كبير منها ، وربما كان
مديراً عاماً للمكتبة بأكملها .

ولم تقف همه ملوك الاسكندرية وعنايتهم عند حد إيواء الفارين من
البؤس والمضطهدين من السياسة ولكنهم كانوا يبعثون برسلهم لاستدعاء أئمة
العلم وسادة الأدب من مختلف البلاد ؛ باذلين في سبيل ذلك كثيراً من
وسائل الاغراء .

وإمل أوضح مثال لذلك هو (فيليمون Philemon) ، وكان شاعراً
مسرحياً من اكبر شعراء الكوميدى ، نشأ في (كيليكيا) وكانت مستعمرة

يونانية أيضاً في آسيا الصغرى ، دعاه بطليموس إلى الحضور إلى الاسكندرية
فلبى الدعوة وجاء ينشر معارفه بين الاساتذة والطلاب ، ويعتد هؤلاء وأولئك
إلى التوسع في ميدان الأدب من ناحية النقد والانتاج .

هؤلاء العلماء وكثير غيرهم يضيق هذا المقال عن التعريف بهم قد وجدوا
في الاسكندرية مكاناً خصيباً فألقوا فيه بذور معارفهم ، فنبتت ، وسرعان
ما أثمرت وأثمرت .

هذه العوامل مجتمعة قد تركزت في مدينة الاسكندرية حركة أدبية عليية
واسعة النطاق ، وبدل أن كانت تتلقى معارف اليونان وتحذو في المدرس
حذوهم ، بدأت تنقد هذه المعارف ، ثم تواف وتبتكر فأصبح لها في الطب
وفي الأدب وفي الفلسفة وفي الرياضة وفي الجغرافيا آراؤها الخاصة ومذاهبها
الجديدة . ولهذا فقد سادت مدينته الاسكندرية غيرها من المدن الجامعية
المعاصرة ، وأصبح يطلق عليها بحق (الوارثة لمدينة أثينا) كما يسميها بعض
العلماء الأوروبيين ، أو (أثينا الشرق) كما يسميها البعض الآخر .

منذ ثلاثة أعوام ألقى أحد الاساتذة في جامعة السوربون . وهو
اختصاصي في الآداب القديمة . محاضرة عن الثقافات في العالم القديم . وعن
مراكزها الرئيسية المختلفة : تلخص هذه المحاضرة في أن البحر الأبيض
المتوسط كان المحور الأساسي لتلك الثقافات وأن مراكزها تدور حوله من
وقت إلى آخر فأول مركز ثقافي هو مصر الفرعونية وكانت مظاهر تلك
الثقافات ممثلة في جامعاتها : هليوبوليس - منفيس - طيبة . ثم اتجه ذلك التيار الثقافي
بعد ذلك إلى الغرب فاحتضنته اليونان وتركز أولاً في مدينة أثينا ثم انتشر
بعد ذلك في المستعمرات اليونانية العديدة .

ومنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد عاد ذلك التيار مرة أخرى إلى مهده
الأول ولكنه تركز هذه المرة في مدينته الاسكندرية ، واستقر بها حتى
أوائل القرن الأول من ميلاد المسيح . وأخيراً اتجه مرة ثانية إلى الغرب
ولكنه استقر في مدينة روما . ودام بها حتى أواخر القرن الرابع بعد
الميلاد .

ومن ذلك نرى أن مدينة الاسكندرية قد لعبت في نشر الثقافة القديمة دوراً له خطره ، وإن من يدرس تاريخ روما وتاريخ الأدب اللاتيني ليدرك إلى أى حد كان كتاب الرومان وأدباؤهم متأثرين بثقافة الاسكندرية في دروسهم وفي إنتاجهم

لم تكن الدراسة في جامعة الاسكندرية مثل ما نعهده الآن من الدراسة في الجامعات الحديثة . وهى صورة من نظام الدراسة في تلك الجامعة نقلها عن أحد المؤلفين الفرنسيين المعروف باسم (كوات Couat) من كتابه (La poésie alexandrine sous les trois premiers Ptolémées) . يقول هذا الكاتب بعد أن تكلم طويلاً عن جامعة الاسكندرية .

، ولقد كان أئمة الجامعة أساتذة ومؤلفين في نفس الوقت . وكان لاشهر العلماء فيها طلاب يقدون ليلقوا عنهم القواعد العلمية ، وأشهر علماء الذو في ذلك العصر كانوا طلاباً طوراً وأساتذة طوراً آخر . وبعضهم قضى كل حياته بين جدران الجامعة ولم تعهد مدرسة أخرى أكثر حرية في دراساتها من الدراسة في تلك الجامعة ، فلم يكن هناك مانعه الآن في مدارسنا الحديثة من الاضطرار في الحضور ومن المواظبة المنتظمة بل كانت هناك أحاديث ذات صبغة جدية ، وأبحاث يشترك فيها الجميع . واحترام طبعى من الصغار إلى الكبار وتمسك وثيق بتقاليد أدبية وعلمية ، تلك هى طريقة الدراسة في الجامعة كما أتصورها ، ومع ذلك فقد كانت هناك دروس متوالية لعدد من الشبان ، بل ولعدد من الاطفال ، وأكثر العلماء شهرة لم يكن يرفع عن إعطاء مثل هذه الدروس ولا عن مخالطة هؤلاء الصغار وتعليمهم بطريقة مباشرة .

هذا هو نظام الدراسة في جامعة الاسكندرية القديمة كما يصوره لنا هذا الكاتب الفرنسى ، ولو أضيف الى ذلك ما عرف من نظام الحياة فيها وما كان هناك من انقطاع تام للدرس والتحصيل حيث يقطن الاساتذة والطلاب في مساكن خاصة وتجرى عليهم الارزاق عن سعة من خزانة

الدولة ، وهم يعزل تام عن مشاغل الحياة وشاكلها الخارجية . لو أضيف ذلك الى وصف الركائب الفرنسى لاستطعنا أن نجد - فى يسر - صورة مشابهة تماما لجامعة الاسكندرية القديمة فى الجامعة الازهرية قبل أن يبالها هذا النظام الحديث ، أى قبل ربع قرن تقريبا ...

وليس من شك فى أن أم مؤسسة ألحقت بالجامعة ، وكان لها أبعد الاثر فى رفع شأنها ونشر لواء المعارف ، هى المكتبة ، وكان الغرض من إنشائها هو أن تبنى بحاجة الاساتذة وتعين الطلاب والباحثين على الدرس والتحصيل . ونحن لا نستطيع أن نمضى فى هذا البحث دون أن نقف وقفة قصيرة عند هذه المكتبة لتبين قيمه الثروة الادبية والعلمية التى كانت تحتويها هذه المؤسسة بين جدرانها : كانت مكتبة الاسكندرية القديمة تعتبر أغنى مكتبة فى الدنيا حينذاك . اذ لم يتيسر لآى مكتبة أخرى فى أى بلد آخر أن تجمع من المجلدات العلمية والآثار الفنية بقدر ما جمعت مكتبة الاسكندرية وفى هذه المكتبة كان يجتمع الادباء والعلماء لتنظيم المكتب ثم اشرحها والتأليف عليها . وقد بلغ عدد المجلدات التى كانت تحتوى عليها ٧٠٠.٠٠٠ مجلد . وهذا عدد عظيم جداً إذا قيس بغيره ، كما كانت تحتوى عليه المكتبات فى ذلك الزمن .

ولمكى ندرك قيمة هذه الثروة الفنية ، ومبلغ هذا العدد الضخم من المجلدات ، يجب أن نقف لحظة نتحدث فيها بلغة الارقام ، ولكن قبل أن نذكر هذا الاحصاء عما عر . وجود الآن من مجلدات فى مكتبات الاسكندرية وفى مكتبات القاهرة ؛ نود أن يعرف القارىء أن مصدرنا فى ذلك هو ما يوجد من احصاء فى المكتبة العامة لجامعة فاروق

والفضل فى هذا يرجع أولا الى مدير هذه المكتبة ، إذ قد أضاف على الاحصاءات الرحيمه ماورد على المكتبات من مجلدات أخرى ، وأظهر من العناية وحسن الاستعداد ما يجعلنا نرجو أن تكون هذه الروح ، وذلك الاستعداد متوفرين عند كل المشرفين على دور المكتبات العامة .

يوجد في الاسكندرية الآن المكتبة العامة ومكتبات كليات جامعة
فاروق الاول .

ثم مكتبة المتحف اليوناني الروماني وأخيرا مكتبة البلدية .

أما المكتبة العامة ومكتبات كليات الجامعة فهي تضم ١٠٠٠٠٠٠ مجلد
موزعة على حسب الترتيب الآتي :

باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الأوروبية	المجموع الكلي
٢١٥٠٠ مجلد	٥٢٠٠٠ مجلد	٧٣٥٠٠ مجلد
٢٥٠٠ مجلد	٥٠٠٠ مجلد	٧٥٠٠ مجلد
٢٠٠ مجلد	٤٥٠٠ مجلد	٤٧٠٠ مجلد
١٦٠٠ مجلد	٢٥٠٠ مجلد	٤١٠٠ مجلد
٥٠٠ مجلد	٣٥٠٠ مجلد	٤٠٠٠ مجلد
٤٠٠ مجلد	٢٠٠٠ مجلد	٢٤٠٠ مجلد
١٠٠ مجلد	٣٧٠٠ مجلد	٣٨٠٠ مجلد
٢٦٨٠٠ مجلد	٧٣٢٠٠ مجلد	١٠٠٠٠٠٠ مجلد

وأما مكتبة المتحف اليوناني الروماني فيوجد بها ٥٠٠٠ مجلد كلها
باللغات الأوروبية .

وأما مكتبة البلدية ففيها ٦١٠٨٨ مجلدا ، منها ٢٧٦٩٣ مجلداً باللغة
العربية واللغات الشرقية و ٣٣٣٩٥ مجلداً باللغات الأوروبية .

ومعنى هذا أن كل مافي مدينه الاسكندرية من مكتبات عامه لا يحتوى إلا
على ١٦٦٠٨٨ مجلداً أى مايقبل عن $\frac{1}{3}$ مجلدات مكتبه الاسكندرية القديمه .
ويوجد في القاهرة مكتبتان عامتان : المكتبه العامه لجامعة فؤاد الاول
وفروعها في مختلف الكليات ، ثم دار الكتب المصرية العامة .

أما مكتبة جامعة فؤاد الاول وفروعها فهي تحتوي على ٢٧٩٦٨٥ مجلدا موزعه كما يأتي .

باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الأوروبية	المجموع الكلي
١ - المكتبة العامة	١٣٢٣٢١ مجلدا	١٦٩٦٠٣ مجلدا
٢ - مكتبة كلية الآداب	٢٧٢٨٢ مجلدا	
٣ - مكتبة كلية التجارة	٢٣٤١ مجلدا	١١٧٣٣ مجلدا
٤ - مكتبة كلية الحقوق	٦٢٢٨ مجلدا	١١٠٧٤ مجلدا
٥ - مكتبة كلية الهندسة	٥٩٨٨ مجلدا	٢٣٠٧٢ مجلدا
٦ - مكتبة كلية الزراعة	٢٠١٠ مجلدا	٤٠٥٣٠ مجلدا
٧ - مكتبة كلية العلوم	١٢٢٣ مجلدا	٨٧٠٠ مجلدا
٨ - مكتبة الاحياء المائية	١٣ مجلدا	١٨٧٤٤ مجلدا
	٢٥٤٩ مجلدا	٢٥٦٢ مجلدا
	٢٣٥٦٠٠ مجلدا	٢٧٩٦٨٥ مجلدا

ومعنى هذا أن مكتبة جامعة فؤاد الاول بما فيها من مكتبات كلياتها المختلفة لايزيد عدد مجلداتها عن ٢٣٥٦٠٠ مجلداً مكتبة الاسكندرية القديمة إلا قليلا .

أما دار الكتب المصرية العامة فهي تحتوى على ١٧٣ و ٥٩٥ مجلدا ، منها ٢٢٨ و ٣٦٠ باللغة العربية واللغات الشرقية ، و ٣٦٦ و ٨١٣ باللغات الأوروبية .

ومعنى هذا أيضا أنها تقل عن مكتبة الاسكندرية بمقدار ١٠٤ و ٨٢٧ مجلدا ، وأخيرا فكل ماأحصيناه فى جميع هذه المكتبات من مجلدات لايزيد عن ١٠٤ و ٩٤٦ راجدا ، وبالتالي فهو لايزيد عن مجلدات مكتبة الاسكندرية القديمة إلا بمقدار ٣٤٠ و ٩٤٦ مجلدا .

ولنعد الآن بعد هذا الاحصاء إلى مكتبة الاسكندرية القديمة :

هذه المجلدات العديدة التي جمعت بفضل عناية الملوك من مختلف بلاد العالم القديم ، كانت موزعة بين مؤسستين : أما المؤسسة الأولى ، وهي جزء من الجامعة ، فكانت تعتبر المكتبة الرئيسية ، وتحتوى على ٤٠٠.٠٠٠ مجلد .

وأما المؤسسة الثانية ، وهي جزء من معبد الآلهة « سيرابيس - Sérapis » فكانت تعتبر المكتبة الفرعية ، وتحتوى على ٣٠٠.٠٠٠ مجلد . وقد زاد عدد مجلدات هذه المكتبة الفرعية زيادة كبيرة بواسطة المكتبة التي نقلها أنطونيوس من مدينة في آسيا الصغرى ، كانت تدعى في ذلك الوقت « برجامم - Pergamum » ، وأهداها إلى كليوباتره .

ولقد بلغت مكتبة الاسكندرية بفرعها من الثروة العلمية ، ومن دقة النظام ، ومن حسن الادارة ، ومن كثرة النفقات درجة لا تقارن في ذلك العالم القديم ، حتى لقد اتهم الكتاب المشهور « سنيكا - Seneca » وهو أحد أدباء الرومان ومن أكبر فلاسفتهم ، الغاية من تلك المكتبة فهو يرى أنها تمثل مظهرا من مظاهر البذخ والترف للملوك الاسكندرية . ولو أن هذا الكاتب اللاتيني عاش ربع قرن فقط أكثر مما عاش ، رأى بنفسه الخدمات العلمية الجليلة التي أدتها البقية الباقية من مكتبة الاسكندرية إلى مكتبة روما : ذلك أنه في أثناء حكم الامبراطور « دوميتيان - Domitianus » شبت النار في روما ، وكان مما ذهب ضحية لذلك الحريق المكتبات العامة في العاصمة ، ولم يجد الامبراطور حينئذ بدا من أن يرسل بعثة خاصة إلى الاسكندرية مهمتها الوقوف على ما في مكتبتها من مجلدات ، ثم نسخ ما يمكن نسخه منها ، وتصحيح ما بقي لديهم من كتب ، لكي يكون ذلك نواة لاعادة مكتبة روما ، ولم يكن في الاسكندرية حينئذ إلا المكتبة الفرعية فقط .

استمرت مكتبة الاسكندرية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حتى حوالى منتصف القرن الأول قبل الميلاد وهى تمثل جزءا كبيرا من النشاط العلمى والثقافه الانسانيه ، لا فى جامعته الاسكندرية وحدها بل فى العالم المتحضر إذ ذاك .

ولقد أدرك ملوك البطالمه قيمة هذه المهمة فكانوا يختارون لادارة شئونها وللإشراف عليها اكبر أساتذة العلم وأئمة الأدب كى يزيدوا فى ثروتها العلمية بما ينتجونه من مؤلفات ، وفى ثروتها الأدبية بما كان لهم من شهره ومكانة بين المعاصرين .

وأول من عين لادارة شئون هذه المكتبة هو دزبنودوتس « Zenodotos » من مدينة كانت تعرف قديما باسم « Ephesus » فى آسيا الصغرى ، وقد اشتهر بمكانته فى الشعر القصصى وكان أول أديب يتصدى لنقد أشعار « هوميروس - Homerus » الشاعر اليونانى العظيم .

ثم جاء من بعده « أبولونيوس - Apollonius » وقد نشأ فى الاسكندرية ثم ذهب إلى جزيرة رودس على أثر خلاف بينه وبين « كاليماخوس » ولكنه عاد ثانية إلى وطنه كى يتولى شئون المكتبة ، وبنّج للأدب كتباً عديدة .

وبعد هذين الأدبيين جاء العالم الكبير المدهش « إراتوستينيس Eratosthenes » الذى ملأت شهرته الدنيا وغزت معارفه الأرض فكان يعتبر وحده دائرة معارف ، وهو فوق مكانته فى الفلسفة ، وفى الفلك ، وفى الجغرافيا قد كتب كثيرا فى النقد وفى الأدب .

وهكذا قد توالى فى الإشراف على مكتبة الاسكندرية طام بعد طام

أو أديب بعد أديب حتى جاء قيصر إلى الاسكندرية ممثلاً لسلطان روما على رأس كتائبه الرومانية .

وفي ذلك الوقت كان الخلاف شديداً بين كليوباترة وأخيها على ملك مصر ، وأعلن قيصر بأنه إنما جاء لحسم النزاع وللتوفيق بين المتخاصمين ولكنه أظهر من التحيز لكليوباترة ما اعتبره أهل الاسكندرية ماساً بكرامتهم فأجمعوا أمرهم ، وثارت ثائرتهم ، وأحاطوا بقيصر وجنوده ، وكاد الأمر ينتهي لهم ، لولا استماتة قيصر والتجأؤه إلى أعمال التخريب فكان مما صنع أن أعطى الأوامر لجنده بحرق الأسطول المصري ، وكان مرابطاً في ميناء الاسكندرية قريباً من الحى الأهل بالجامعة ، وحصل هذا في عام ٤٧ ق م . انتقل اللهب من الأسطول إلى المكتبة الرئيسية قاتى عليها وذهبت ضحيته ثروة علمية وأدبية لاتعوض ، وكانت هذه أولى وأعظم النكبات التى أصيبت بها جامعة الاسكندرية . ولقد روى كتاب الرومان أنفسهم هذا الحادث بشئ من الأسف .

بقيت المكتبة الفرعية وحدها ، وكانت كما ذكرنا جزءاً من معبد الآله « سيرابيس » . ونستطيع أن نعتبر هذا الحادث حداً فاصلاً بين عهدين متباينين : فى العهد الأول منها كانت الاسكندرية تعتبر أهم مركز للنشاط الثقافى فى العالم المتحضر إذ ذاك ، وفى الثباتى منها بدأ نجم الاسكندرية يأفل وسيادتها الادبيه تضعف ، إذ أن روما بدأت تستلقت الأنظار ، وتشغل رجال العلم والأدب كما كانت تشغل رجال السياسة والحكم . ومع ذلك فقد نهضت الاسكندرية فى عهد كليوباترة واستطاعت أن تسترجع مجدها السيامى ، وتعرض سلطانها على الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، فكانت أكبر منافس لروما فى سيادة العالم إذ ذاك ، ولكننا إذ نذكر هذا نقرر فى نفس الوقت

أن هذه النهضة كانت أشبه بنهضة المحتضر ، فكان تتابع الأحداث السياسية يستنفد مجهود الدولة ، ولذا لم يفكر أولوا الأمر في إعادة المكتبة ، وبقيت الجامعة بما فيها من طلاب وأساتذة معتمدة على المكتبة الفرعية فقط .

استمرت هذه المكتبة بدورها تمثل نشاطا أدبيا محدودا حتى عام ٣٨٩ بعد الميلاد ، وحينئذ قامت في الاسكندرية ثورة داخلية عنيفة نستطيع أن نسميها ثورة دينية ، إذ أنها كانت بين المسيحية والوثنية . انتهت هذه الثورة أيضا بأعمال التدمير ، وكانت المكتبة ومعها المعبد لديني ضحية لذلك التخريب .

لقد كان هذا الحادث ماثرا لخلاف طويل وآراء متباينة بين المؤرخين فمنهم من ينسبه إلى العرب أيام فتحهم لمصر ، ومنهم من ينسبه إلى المسيحيين أثناء الثورة التي أثمرنا إليها ، ونحن أمام هذا الخلاف لانستطيع أن تمضى سريعا دون ابداء مالدينا من وجهة نظر

ونحن إذ نسأم برأى في هذا الخلاف إنما نعتمد في ذلك على تتبع الحوادث وفهم الوقائع التاريخية بعد ربطها جميعاً ببعضها ببعض ، ولنا نبغى من وراء هذا غير الانصاف العلمي .

إن من ينسب هذا الحادث ، من المؤرخين إلى العرب لا يعتمد في ذلك على دليل مادي ، بل على العكس من ذلك نستطيع أن نذكر من الأدلة ما يكفي للبرهنة على أن ضياع هذه المكتبة كان نتيجة لثورة المسيحيين ضد الوثنيين .

أولا : كان طابع الثورة كما رأينا طابعاً دينياً ، وكان أهم مظاهرها في المدينة هو التخريب ، وليس من شك في أن الهدف الأول لذلك التخريب هو معابد الآلهة الوثنية ، ثم تأتي بعد ذلك معاهد العلم التي كانت تدرس فيها تعاليم الديانة الوثنية ، أو تحفظ فيها آثار تلك التعاليم ، واذن فقد كانت مكتبة

الاسكندرية الثانية هدفا مزدوجا لتلك الثورة ، اذ أنها كانت تكون جزء من معبد الاله « سيرابيس » ، أكبر اله وثني اذ ذاك ، وكانت في نفس الوقت مستودعا هاما لآثار تلك الديانة الوثنية . ثم أن أعمال التخريب هذه لم تقف عند هذا الحد وحده ، بل تناولت غير من المعابد الوثنية في سائر المدن المصرية ، من الاسكندرية حتى جزيرة القيلة ، في أقصى الحدود المصرية من الجنوب .

وأنه لمن الحق أن نقرر أن هذه الاعمال كانت تصدر عن المسيحيين بدافع الايمان الكامل بمبادئ المسيحية ، والعمل على نشرها ، ولن يتم لهم ذلك الا اذا زالت آثار الوثنية التي لم تكن في عقيدتهم الا كفراً وضالاً .

ثانياً : لم نعد حتى اليوم على أثر ثبت أن هذه المكتبة كانت موجودة في الفترة التي بين الثورة المسيحية في الاسكندرية وفتح العرب لمصر أيام صمر بن الخطاب .

ثالثاً : ان ما عرف عن سياسة العرب في فتوحهم لا يدل على أنهم كانوا يلجئون الى أعمال التخريب في المعابد ، بل على العكس كانوا يحاولون جهدهم الاستيلاء على الكنائس والمعابد سليمة كي تحول فيما بعد الى مساجد ، وقد رأينا من آثار ذلك في بلاد الشام وفي القسطنطينية ، وفي الاندلس . ولعل هذا المظهر وحده هو الذي دعا كتاب الغرب الى أن يقفوا من ذلك موقف الحيرة والتردد .

هذه هي النهاية المحزنة لمكتبة الاسكندرية بفرعها ، غير أن ذلك لم ينقص شيئاً من القدر العظيم الذي ساهمت به في رفع مكانة الاسكندرية الادبية أيام البطالة ، وكذلك لم تنس الاجيال القادمة ذلك الدور الهام الذي قامت به على مسرح الثقافة الانسانية .

لقد أشرنا فيما مضى الى أن حضارة الاسكندرية قامت على أسس حضارتين

قديمتين . أولاهما عن الحضارة المصرية ، والآخرى هي الحضارة اليونانية .
وفي الحق أن جامعة الإسكندرية قد استطاعت أن تمزج هاتين الحضارتين
وتستخلص منها حضارة جديدة في أفكارها ومظاهرها ، ولذا فقد نسبها
العلماء الى الاسكندرية واستمروا يطلقون عليها « الثقافة الاسكندروانية » .

هذه الثقافة الجديدة فتحت للعلماء آفاقاً واسعة في ميادين المعارف
الانسانية ، فهم بعد أن فهموا القديم نقدوه ، ثم أنهم لم يبقوا عند هذا الحد
بل ابتكروا وأنتجوا . وهكذا أصبح لجامعة الاسكندرية في الدراسة اتجاهات
أخرى . وفي الإنتاج مذاهب خاصة ، وذلك بفضل ما وصل اليه العلماء من
اكتشاف ، سواء أكان في ميدان المعرفة النظرية كالآداب والفلسفة ،
والرياضة ، والجغرافيا ، أم في ميدان المعرفة العملية كالطب ، والهندسة .

وليس من السهل أن نرسم في هذه العجالة الخطوط الأساسية لكل هذه
العلوم ، ثم نبين مدى ما عتاز به ثقافة الاسكندرية في كل هذه النواحي ،
ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نخصي سريعاً دون أن نقف وقفة يسيرة في أحد
هذه الميادين العلمية فنحمله لنتبين مبلغ نشاط جامعة الاسكندرية في هذه
الناحية ومقدار ما امتازت به من اتجاهات ومذاهب ، ونعني بذلك ، الميدان
الأدبي بمعناه الضيق ، أي فن القول .

وإذا كنا قد تخيرنا هذا الميدان من ميادين المعرفة عند القدماء ليكون
نموذجاً لغيره فذلك لأنه في الواقع يعتبر أهم مظهر من مظاهر الثقافة عند
القدماء . كانت الغاية الأولى من الأدب عند اليونان هي خدمة السياسة ،
والدين ، والمجتمع وما عدا هذه النواحي الثلاث فكان يعتبر شيئاً ثانوياً في
حياة الأدب . وعلى هذا الأساس كان مظهر رقي الأدب ، وعظمة الأدباء .
جاءت من بعد ذلك جامعة الاسكندرية فرفضت هذه القواعد . وحطمت تلك
الأغلال ، واستكثرت على الخيلة الانسانية والاحساس الفني أن يقفا في هذه

الدائرة الضيقة المحدودة ، فسمت بالأدب الى الأجواء العليا ، وذهبت به إلى الآفاق البعيدة ، وجعلته يشرف على كل فروع المعارف الإنسانية ، فيعجب بالجمال في كل منها ، ويساهم بقسط فيما ينتج بعد ذلك من ثمر .

من ذلك أن أصبح الحب الموضوع الرئيسي للأدب عند أدباء الاسكندرية فتناولوه بالوصف والتحليل ، وأكثروا من القول فيه ؛ حتى لقد كاد يطغى على غيره من الموضوعات ويستقل بنتاج خيال الأدباء .

لقد أدرك هؤلاء الأدباء القيمة التي يمكن أن يكتسبها الأدب ، والشعر بوجه خاص ، حين يستعيز عن موضوعات البطولة ، التي لا يحس بها ولا يدركها الا طبقة من الناس محدودة ممتازة ، بموضوعات الحب التي يحس بها ويدركها كل طبقات الشعب ، وفي ذلك بلا شك ، كسب عظيم للأدب . ثم أنهم فوق ذلك قد حاولوا أيضا ، ونجحوا في تلك المحاولة الى حد ما ، أن يدخلوا العلم في الشعر ، فكان ذلك بمثابة منبع خصيب ، ومدد جديد ، ولعلمهم أحسوا بأن الشعر قد استنفد موضوعاته القديمة ، ومل كل مصطلحاته الأولى ، وأصبح يبدو للناس كما يبدو الرجل الهرم ، فأرادوا بذلك ان يعيدوا اليه شيئا من الفتوة ، ويستكثروا من ثروته اللغوية ، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا النوع من الشعر ميدانا يتسابق فيه الشعراء .

نعم ، قد أضعف هذا الاتجاه فيما بعد ، القيمة الادبية للشعر ، وذلك حين استحال الى نوع من النظم الجاف ، الذي يتركز على الفكرة الخالصة ، ويبعد بعداً تاماً عن الخيال ، والعواطف ، والاحساس . وهنا يجب أن نستدرك سريعاً فنقرر أن أدباء الاسكندرية لم يعرفوا هذه المرحلة بعد ، ولم يدرك عصر الاسكندرية ، بل ولا عصر روما من بعدها الا عظمة هذا النوع من الشعر ومجده .

وكذلك نجد من الاتجاهات الجديدة الواضحة عند أدباء الاسكندرية ان

الشعر أصبح في نفسه غاية تقصد لذاتها ، فهم الذين اوجدوا بحق هذا المبدأ المشهور « الفن للفن » ، فلم يكونوا ليستكثروا ما يبذلونه من وقت وجهد طويلين في سبيل صقل الشعر ، او في البحث عن الأوصاف الجميلة ، أو في ابتكار المحسنات البديعية الرائعة .

ولم يكن هذا الاتجاه الخطير في الواقع إلا صدى لتعاليم ذلك العصر ، وإجابة لرغبة كانت تتغلغل في نفوس الكثيرين : تلك هي تعاليم « زينون » Zeno و « أبيقور » Epicurus « حينما بدأت المدينة تتحلل من قيود حكم الدولة ، وبدأ الإنسان يلقي عن كاهله أعباء قوانين المجتمع المرهقة الثقيلة ، ويحس نكبانة في الوجود ، ويشعر بحاجته الملحة الى الحرية والاستقلال . انتشرت هذه التعاليم ونجوت أصداؤها في مختلف المدن الجامعية ، ثم تناولت آثارها كل أنواع الفنون ، فكان هناك ما يشبه الثورة على القديم والنزوع الى الجديد المشع بروح الصراحة والحرية والاستقلال . ولقد كانت جامعة الاسكندرية بلا شك مركز هذه الثورة الأولى كما كان أديباؤها وعلمائها هم قادتها وزعمائها .

هذه الأنواع الجديدة في فن القول استلزمت بطبيعة الحال من أدباء الاسكندرية أنواعاً جديدة في الصيغ وفي الفكر ، وفي أوزان الشعر ، إذ لم تكن أوزان الشعر عند القدماء مثل مانعده في الأدب العربي ، بل كان لكل نوع من الشعر وزن خاص يلائمه ، ويتمشى معه طولاً وقصراً .

هذه الحركة الادبية الواسعة ، وتلك الاتجاهات الجديدة المتعددة ، أوجدت عند أدباء الاسكندرية مذهباً خاصاً في الادب أثر عنهم وعرف باسم المذهب الاسكندري ، ويمكن تحديد هذا المذهب بأنه (العناية الشديدة والحرص التام على جمال اللفظ) .

انتشر هذا المذهب بسرعة في كل المدن الجامعية من حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبدأ يغزو معادل الادب القديم معقلاً بعد آخر ،

فتبذل عليه كثير ، وأخذت آثاره تظهر في أثينا وفي رودس وفي كوس
وفي برجامم وفي أنطاكية وفي سيراكوز وفي قورين وفي روما .

وإنه لمن المؤسف جداً أن لم يترك أدباء الاسكندرية آثاراً كبيرة ، ولم
تبق لنا الاحداث إلا بعض قطع جميلة ، ولكنهم مع ذلك قد تركوا
كثيراً من التلاميذ الذين اعتنقوا مذهبهم ، وواصلوا عملهم ثم نقلوا عنهم ،
هؤلاء التلاميذ هم أدباء الرومان : ومن هنا ندرك في يسر مدى صدق
هذا التعبير (Rome était l'héritier d'Alexandrie, comme Alexandrie
était l'héritier d'Athènes).

أى أن (روما كانت وارثة الاسكندرية كما أن الاسكندرية كانت وارثة
لأثينا) وكذلك نستطيع ان ندرك قيمة هذه العبارة المأثورة التي يرددها
الكتاب الفرنسى ، Cochat ، فى كتابه الذى سبقته الإشارة اليه ص ٥١٧

“ Les Alexandrins ont rendu à la Grèce héroïque le service
que rendirent les Latins aux Alexandrins eux-mêmes; c'est
par ceux-ci ou par leurs imitateurs que nous le connaissons..

أى (لقد أدى الاسكندريون الى اليونان الابطال نفهم الخدمة التي أداها
اللاتينيون الى الاسكندريين أنفسهم ، ونحن لم نعرف هؤلاء الاسكندريين
إلا بواسطة اللاتينيين أو بواسطة من قلدهم ، .

ومن هنا ندرك أيضاً مبلغ الحاجة لمعرفة الثقافة الرومانية القديمة بالنسبة
للمصريين ، فعارفنا وآثارنا . وثقافتنا فى أيام نهضة الاسكندرية لا تزال
تتردى لنا كحلقة مفقودة من سلسلة حضارتنا الطويلة . ولن توجد هذه
الحلقة إلا بدراسة الثقافة الرومانية القديمة ؟

دكتور حسن هاشم